بين الشك واليقين

لحضرة الكاتب الفاضل صاحب التوقيع

تحيرت — حيّر الله مؤرخي الأدب وناقديه . ماذا أكتب ؟ وماذا أقول ؟ وعلى أي رأي أعتمد ؟ أعلى رأي القدماء ؟ أم على رأي المعاصرين ؟

للقدماء آراء لم تمحص وأقوال يتطرق الشك الى معظمها وللمعاصرين في تزييف القديم مغالاة لا تحتمل وانكار يهدم أسسه ويعفي معالمه ، وطالب الأدب بينهما يخبط والدقيق بين شك ويقين وإنكار وإثبات . كنت أقرأ الأغاني منذ احد عشر عاما وألتهم كل مافيه التهاما ويحبب إليَّ قراءة رجال السند واعلام اللغة والشعر والتنقل بين جده وهزله ورقيقه وجزله ثم قرأت غيره وغيره من أمهات كتب الأدب الى أن قرأت طبقات ابن سلام الجمحي وهضمت آراءه وتذوقت فنه وعرفت ما يريده وما يرمي اليه فكان نبراساً يهدي العقول الضالة ومرحلة يجب أن يقطعها كل باحث يريد الوصول ، عندئذ تغير معتقدي الأول وأحاطت بي الشكوك والريب ونظرت الى كل ما قيل وما يقال نظر المضطرب ولي أن اضطرب واضطرب لأن نزع ما تحبه النفس وتؤمن به امر عسير طبعاً ، وكم تمنيت محققا يزيل شكي ويسير بي الى يقين ثابت أحبه وأطمئن اليه وظلت أرقبه وأفتش عليه حتى بشرت بقرب الانتهاء من طبع مهذب الاغاني للأستاذ المرحوم الخضري بك وكانت أول نسخة ظهرت منه تقريباً في يدي وما انتهيت من درس المقدمة حتى عرفت أن الرجل لم يهذبه ولم يمس الجوهر بأي نقد أو تنقيح بل اكتفى بتبويبه وترتيبه ترتيباً ذهب ببهجته ورواءه وأضاع على الاديب لذة التنقل والتنويع وحذف منه السند وما يزعم أنه وبال على الناشيء معرفته وهذا عمل لا يذكر من رجل كالخضري بك خصوصاً وأنه خالف في ضبطه أئمة اللغة وما هو متفق عليه بين أعلام الأدب من ذلك أنه ضبط غير عُدُس بن زيد بضم الدال مع أن أبا بكر الأنباري حدث عن أشياخه قال : كل ما في العرب عُدَس بفتح الدال الا عُدُس بن زيد فانه يضمها . ولقد راجعته عليه الرحمة في هذا فشف جوابه عن عدم عناية بالضبط أيضاً ، ولم يناقش روايات

أبي الفرج الدالة على كبير ثقته بالرواة ومن أخذ عنهم والثقة كما تعلم تدعو الى الزلل في الحكم والخطأ في التقدير وتغطي على البصر فلا تجعله يرى الاشياء على حقيقتها ، وهل يظن أن مضاضا الجرهمي هو القائل :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر (الابيات)

بعد ان اثبت أبو الفرج في حكاية طويلة أن مضاضا هذا من أخوال اسماعيل ومعنى ذلك انه من العرب العاربة وأن لغته هي العربية القديمة التي لا يوجد الآن ولا قبل الآن من يفهمها والتي لم تأخذ شكلها الذي نعرفه الا بعد أن تعاقبت السنون الطوال على اختلاط ولد اسماعيل بأبناء العرب العاربة . وهنا اسأل — ولي أن أسأل — هل نسبة هذا الشعر إلى مضاض غير صحيحة ؟ أم أن مؤرخي اللغة من قدماء ومحدثين مخطئون فيما استنبطوا وأن لغة القرآن كانت موجودة على هذا النمط وبهذه الاساليب أيام اسماعيل وقبل أيام اسماعيل ويوم ان قال رجل من جديس البائدة على رأيهم :

ولولا المزعجات من الليالي لما ترك القطا طيب المنام

اذا قالت حذام فصدقوها فان القول ماقالت حذام

كل ما يقال جائز وبعضها كثر جوازا وهو خطأ المؤرخين وقدم اللغة ولكن على شريطة ان تكون هناك ثقافة عربية قديمة ضل سبيلها الباحثون وكان رسوخها في عصورها المختلفة وبين جهاتها المتعددة هذا اللسان العربي المبين ، والصواب في الحكم يحتاج الى بحث طويل ليس هذا محله غير أن رأي القدماء ومن على شاكلتهم في الجاهليين من انهم أهل خيام وغارات فحسب هو الذي اتخذه انصار الهدم وسيلة لنسف القديم وتجريح كل ما له بالعرب صلة من نظم ونثر وخطابة ومثل ولو انصف الهدامون لاستبدلوا بالهدم بناء وبالانكار اثباتا لان الاثر يدل على المؤثر والصنعة تدل على الصانع وتوحيد أساليب اللغة وما يظهر عليها من الوان الحضارة يدل على ان هناك ثقافة وعمرانا وما أسواق العرب كعكاظ الا اثر من آثار تلك الثقافة التي هرمت وشاخت قبيل الاسلام وكان للقرآن أثره الفعال في انعاشها وبعثها من رقدتها ولم يقص عليهم أبناء العرب الاولين الا ليحذرهم عاقبة الطغيان الذي أهلك عاد الاولى وثمود فما أبقى وليعلموا انهم أبناء مجد ورفعة وعز ومنعة ؟

بور سعيد عبد القادر عاشور